قطرب وكتابهُ المثلث

يتسابق الادباء وطلاَّب الحقائق من ابناء اللغة العربية والراغبين فيها من الافرنج ويتنافسون في التنقيب عن المخطوطات العربية ابتغاء الوقوف على ما تضمنتها صحائفها من الكنوز العلمية والحقائق التاريخية والفوائد المتنوعة فيعمدون الى طبعها ونشرها في الاقطار تعميماً للمنافع واعلاناً لفضل مؤلفيها . والحق يقال ان مستشرقي الافرنج هم السابقون الى هذه المأثرة فكم حشدت مكاتبهم العمومية والخاصة من نفائس الكتب العربية المخطوطة واتوا منذ عهد بعيد يتناول بضعة قرون على طبع كثير منها في بلادهم فجاءت مثال التدقيق والتحقيق والضبط . فنجير لم بهذه الشهادة مع علمنا ان سماعها لا يحلو لفريق من ادبائنا ولربما نفع لديهم موقعاً سيئاً ولكن اذا احطا هؤلاء على المقابلة والمعارضة تظهر الحقيقة لكل منصف منهم فاننا نرى غالب الاحيان بوناً عظيماً بين ما يجوزهُ الغربي من المطبوعات العربية وبين التي يتولى طبعها الشرقي ولذلك اسباب عديدة لا محل لاستيفائها الآن

نريد بما مرَّ من الكلام التوطئة لموضوع مقالتنا هذه « قطرب وكتابهُ المثلث » فاننا طالعنا في مجلة المشرق ابحاثاً تتعلق « بمثلثات قطرب » لا نبخسها الشكر على الخوض فيها . وياحبذا لو اقتدت المجلة المذكورة بالقاعدة الاوربية التي اشرنا اليها وخلصت من الاتهام في نقص التحري والتدقيق الى درجة لا يسامحها عليها جمهور الباحثين ولكن العصمة والكمال لله وحدهُ . وقد وافينا تلك المجلة بمقالة في هذا الشأن وبثانية جواباً على الملحق الذي تعجَّلتهُ على مقالتنا في الجزء نفسهِ ولكنها اوصدت دوننا ابوابها وظلت الحقيقة مطموسة ولذلك لم نرَ بدّاً من العود الى الكلام في هذا الموضوع طارقين لاجلهِ باب مجلة المتطف الراسخة القدم في خدمة الادب وكل ما من شأنهِ كشف الحقائق التي لا تبرأ ذمة عاقل الاَّ بطلبها من مظانها الاصلية . وها انني اشرع بذلك معترفاً بقصر الباع وقلة البضاعة ولكن ان هو الا وَلَع الفطرة بجمع مخطوطات الكتب العربية وفضل عواري الصدفة التي دفعتني الى اقتناء نسخة من كتاب المثلث لقطرب . ولست اغالي بها ولا اجازف اذا قلت يجب ان نعتبر حتى الآن اصدق حجة واصح سند لما تضمنهُ من الحقائق المناقضة للسهو والشبهات التي جاءت في كلام مجلة المشرق المذكور آنفاً والتي سيدوم اعتبارها كذلك ما زال استمرار البحث لا ينقضها في مستقبل الزمان

سأتي في مقالتي هذه على اربع مسائل . الاولى ترجمة قطرب أخذاً ذلك من كتب التراجم على قدر الاستطاعة . الثانية وصف النسخة من كتاب المثلث التي وقعت لي . الثالثة الاوهام التي ارتكبتها مجلة المشرق بتصديها للبحث عن مثلثات قطرب . والرابعة معارضة منظومة الديربني بنسختي . وهذه المنظومة تتضمن مواد المثلث القطربي مشروحة كل مادة منها بكلمة واحدة وقد اخذتها كما وردت في المجلة المذكورة نقلاً عن النسخة التي في مكتبة برلين الملكية

المسألة الاولى ترجمة قطرب . هو احد ائمة عصره في اللغة والنحو اخذ ذلك عن معلمه سيبويه وعن جماعة من العلماء البصريين وقد عرف بهذا اللقب الذي اطلقهُ عليهِ سيبويه نظراً لما تحققهُ فيهِ من الرغبة والاجتهاد في طلب العلوم اذ كان يباكرهُ في الاسحار الى حلقة التدريس طارقاً باب دارهِ قبل سائر الطلبة رفقائهِ . وذلك تشبيهاً لهُ بالدويبة المعروفة بهذا الاسم ومن خصائصها انها لا تزال تدب ولا تفتر . اما اسمهُ وكنيتهُ فالذي ذكرهُ مصنفو التراجم وغيرهم واولهم ممن وقفنا عليهم الانباري صاحب نزهة الالباء في طبقات الادباء المتوفى في اواخر المائة الخامسة للهجرة وصاحب اللسان واليوطي وصاحب كشف الظنون وسواهم ان اسمهُ محمد ابن المستنير وكنيتهُ ابو علي . اما ابن خلكان فذكر لهُ عدا ذلك اسمين آخرين وهما احمد بن محمد وحسن بن محمد ووافق من عددناهم في الكنية[1]

ولقطرب تصانيف عديدة ذكر منها الانباري وابن خلكان سبعة عشر مصنفاً في جملتها كتاب المثلث في اللغة وهو كما قال الثاني وان كان صغيراً لكن لقطرب مزية السبق بهِ على من جاء بعدهُ واقتدى بهِ في هذا الباب من اللغة . ولسوء الحظ لم يصل الينا من مؤلفات قطرب التي اشرنا اليها الا الشيء اليسير واكثرها كما يظهر لا وجود لهُ في المكاتب العمومية ولا الخاصة ولم يتوفق لنا الوقوف على شيء منها سوى كتاب الاضداد ورد ذكرهُ في فهرست مكتبة برلين الملكية وعددهُ ٧٠٩١ . ومما لقهُ قطرب ايضاً كتاب غريب الحديث ولربما

(١) ورد اسم قطرب وكنيته في نسختنا على غير ما رواهُ الانباري وانكتاب الآخرون الذين ذكروهُ عليها . فاسمهُ فيها علي بن احمد البصري وكنيتهُ ابو الحسن كما سنراهُ في سياق الكلام على النسخة المذكورة . وفي هذا الاختلاف مجال للبحث وتحري الحقيقة لا موضع لهُ الآن على اننا نقول ان الاختلافات كهذه كثيراً ما نراها في كتب التراجم . مثال ذلك وهو من الغرابة بمكان انهم ذكروا لابي بكر بن عياش بن سالم الكوفي الخياط اربعة عشر اسماً وقد قال صاحب ترجمته بافوت الرومي بعد ان سرد سلسلة تلك الاسماء (لا يعرف لهُ اسم)

يكون هذا الكتاب هو الذي تمنيه الانسكلوبيذيا البريطانية بقولها ان اقدم مخطوط عربي عرف حتى ذلك العهد هو النسخة من غريب الحديث الموجودة في مكتبة جامعة ليدن وتاريخ نساخهِ يوافق سنة ٨٦٦ ميلادية . وقال ابن خلكان ايضاً ان قطرباً كان معلم اولاد ابي دلف العجلي وان ابن المنجم روى لهُ في كتاب البارع بيتين وهما

ان كنت لست معي فالذكر منك معي يراك قلبي اذا ما غبت عن بصري
والعين تبصر من تهوى وتفقدهُ وباطن القلب لا يخلو من النظر

فاستدرك ابن خلكان على صحة هذه الرواية بقولهِ وهذان البيتان مشهوران ولم اعلم انهما لهُ الا من هذا الكتاب . وتوفي قطرب سنة ٢٠٦ هجرية . ويستنتج من هذه الرواية ان قطرباً لم يكن شاعراً حتى ولم يثبت لهُ التحقيق انهُ ناظم البيتين المذكورين فليحفظ ذلك المسألة الثانية . وصف النسخة التي وقعت لنا من كتاب المثلث . تؤلف هذه النسخة من ثماني عشرة صفحة وهي بالقطع الربعي نوع الخط فيها بقارب النسخي وقد كُتب على ظهر ورقتها الاولى هذا العنوان «كتاب المثلث تأليف ابي الحسن علي بن احمد البصري المعروف بقطرب رحمة الله عليهِ وهو تسعة وعشرون نوعاً . والفصيح لثعلب» . وفي راس الصفحة الاولى البسملة هكذا « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد نبيهِ وآلهِ وصحبهِ وسلم » . ثم المقدمة وهي « هذا كتاب الله قطرب بن احمد البصري واسمهُ علي بن احمد رحمة الله عليهِ ويقال لهُ المثلث وهو حرف تراهُ في الكتاب على صورة واحدة وينصرف على ثلاثة معان» . وختمها الناسخ في الصفحة الاخيرة هكذا « تمَّ كتاب المثلث بعون الله . في شعبان سنة ٥٧٣ والحمد لله وحدهُ وصلى الله على سيدنا محمد نبيهِ وآلهِ وصحبهِ وسلم تسليماً . وحسبنا الله ونعم الوكيل » . ويجمع هذه النسخة ونسخة من فصيح ثعلب جلد واحد خلق لعلهُ الجلد الاصلي وهما لناسخ واحد وقد جاء في آخر هذه الثانية ما نصهُ «نجز كتاب الفصيح لابي العباس ثعلب رحمهُ الله بمشيَّة الله وعونهِ وذلك في العشر الاوسط من جمادى الاول من سنة ثلاث وسبعين وخمس مائة بمدينة قوص» . وقد كُتبت مواد المثلث التسع والعشرون بالخط الثلث والشرح بخط يقرب الى الدقيق وكلاهما بالحبر الاسود . ورغماً عما اورثتهُ غير الدهر لهذه النسخة من سوء الاستعمال وسطو السنَّة مدى زمان يناهز ثمانية قرون فانها لا تزال بحالة مرضيَّة كما ترى في الرسم الفوتوغرافي المنقول عن صفحة منها

المسألة الثالثة . اوهام المجلة التي تصدرت لتبحث عن مثلث قطرب . توهمت تلك المجلة ان مثلث قطرب هو منظومة الشيخ سديد الدين ابي المحاسن (بن) مهلَّب الدين حسن

البهنسي المتوفى سنة ٦٨٠ هجرية القائل حسبما وجدنا في القسم الثاني من المجموعة التي عددها ٧١٨ الموجود منها نسخة بمكتبة الاوسكوريال باسبانيا ما نصهُ « نظمت مثلث قطرب في قصيدة ابياتها اثنان وثلاثون بيتاً على حروف المعجم » والقصيدة المشهورة المشار اليها هي التي مطلعها « يا مولاً بالنصب : والجر والتجنب » وقد صرّح ايضاً هذا الشاعر بذلك اذ قال في ختام قصيدته ما نصهُ « لما رأيت ولهُ : ومجزهُ ومطلعهُ : : نظمت في وصفي لهُ : مثلثاً لقطرب »

وفضلاً عما صرح به سديد الدين البهنسي المشار اليهِ قال شارح هذه المنظومة الذي اوردت المجلة المذكورة شرحهُ ما في احد اجزائها — وهو ابو محمد عبد العزيز بن احمد ابن سعيد الدميري الديربني المصري المتوفى سنة ٦٩٤ للهجرة قال في مقدمة شرحهِ نظماً « وبعد فالقصد بما : اوردتهُ شرحاً لما :: قد كان قبلاً نُظما : مثلثاً لقطرب » . وهذا الشاعر نظم ايضاً كما ذكرنا قبلاً مثلثات قطرب شعراً بقصيدته الشهيرة التي مطلعها « اذا عايشت سبل الحب غمرا : وقد ملئت بك الاعداء غمرا » والتي سنعارضها كما سيأتي بنسختنا لنبين مواضع الاصابة من الزلل ويبقى عملنا هذا مثالاً لمعارضة كل ما جاء من الشروح بالمثلث القطربي وذلك من وجهين احدهما عدد المواد والآخر مطابقة الشرح وعدمها . فالحقيقة التي لا يتمارى فيها ان قطرباً وضع مثلثهُ وشرحهُ نثراً لا نظماً . ومواد هذا المثلث تسع وعشرون مادة وهي هذه كما جاءت مرتبة في نسختنا مفتوحة الحرف الاول فمكسورتهُ فمضمومتهُ «الغمر . السلام . الكلام . الخلم . الحجر . الدعوة . السبت . الحرة . السهام . الشرب . الخرق . الشكل . الوقاق . الطلا . الصرة . الملا . الحا . السقط . الامة . القسط . القمة . الجد . المعرف . الكلا . الجوار . المسك . الحمام . الثة . الصل » . وقد مر بنا ان سديد الدين البهنسي اوردها في منظومتهِ اثنتين وثلاثين مادة وجعلها الديربني في شرحهِ لها اربعاً وثلاثين وفي كليهما اي المتن والشرح ينقص عن الاصيل القطربي ثلاث مواد وهي الحجر والسقط والصل . بناء عليهِ يزيد المتن البهنسي ثماني مواد اذا اعتبرنا الساقط وهي هذه : « رشا . عمر . الزجاج . اللقا . المنة . الظلم . القرى . القطر » . ولا نعلم اسباب هذا النقص والزيادة . اما منظومة الديربني فقد جاءت مطابقة لنسختنا في عدد المواد ومخالفة لها في ترتيبها وشرح بعضها كما سيظهر في القسم الرابع من هذه المقالة . وسيأتي الكلام عليهِ في الجزء التالي مراد البارودي